العيون الحانية

قصة بقلم كمال رمزي

- ١ -

نظر في عيني الفرد متوعدا . وعلى الفور زاغت عينا الفرد فلم يستطع ان يثبتهما على شيء ، شد الرجل سلسلة الحديد شدتين قاسيتين . وضع القرد كفه على السلسلة بينما تحرك جسمه بطريقة عصبية . نظر الى الرجل برعب ورجاء ، لكن الرجل كان يعرف قواعد اللعبة ، لذا تقدم ثلاث خطوات ورفع قدمه اليمنى ليهوي بحذائه فوق جبهة القرد وبوزه . زأر القرد بغضب واتسعت سفتاه لتكشفا عن أسنان صفراء قذرة عريضة ومتفرقة عن بعضها .. قبل ان يتحول غضبه الى فعل ، عاجله الرجل بضربة حذاء اشرس من الاولى ، اصابت جبهته وكحتت منخريه وشفتيه واسنانه . أصدر القرد خوارا متراجعا وتضاعف الرعب والرجاء في عينيه ، بدأت قطرات دم قليلة تتجمع من منخريه وشفته العليا ولثته الحمراء لتجمد بين اسنانه . رجع الرجل الى الوراء خطوتين ، تأمل القرد بعيون بدت حانية ، أصدر القرد انينا معذبا .. تقدم الرجل خطوة ليشوط قدمي القرد بخبرة فائقة ، ذلك انه تعمد الا يمس ركبتيه خوفا عليهما من الكسر ، ولكنه لمس الجلد الخارجي لقصبة القدمين ، ولول الفرد بفعل الالم ، لكنه لم يقفز على قدميه الخليفيتين كما كانت عادته من قبل ، لانه يدرك العقاب الذي سيتعرض له .. رجع الرجل بظهره ثلاث خطوات . تفرس في القرد بلا انفعال . بدا القرد بوضوح خائر القوى ، مستسلما . بعد ان اطبق شفتيه على اللثة الحمراء والاسنان الصفراء بما تجمد بينهما من دم .

سحبه الرجل من السلسلة واتجه به الى بقية القرود التي شهدت المشهد كاملا . وبالرغم من ان العملية لم تكن جديدة ، الا ان صمت الخوف والمفاجأة اطبق عليها كما لو كانت تشاهد التأديب لاول مرة !. اقترب الرجل من وتد الحديد ليسيل خطاف سلسلة الفرد في احدى الحلقات الجانبية . افسحت القرود طريقا للرجل . شبك الخطاف باحدى حلقات الوتد . رجع للوراء بخطوات حذرة وهو يدير عينيه بين القرود ، عندما اطمأن الى بعد المسافة بينه وبينهم أعطاهم ظهره وبدأ ينزل عنده خطوات الى سفح الجبل متجها الى بيته الصفيحي .. كان القمر أمامه فالقى بظله الطويل وراءه . بعد ان اختفى هو وظله انحنى القرد المضروب برأسه الى الامام واخرج لسانا طويلا يميل لونه الى الخضرة من المنتصف ، وعندما لمس به جرح قدمه احس بألم جديد فاسرع بارجاع لسانه الى مكانه وأغلق فمه بشدة وتمدد على بطنه وبدأ يئن بصوت لا يمكن ان تسمعه الا اذا قربت اذنك منه او تأملت بدنه وهو ينتفض مع كل كتمة انين .

- ٢ -

عدة خطوات ينزلها الرجل فيجد نفسه في سفح الجبل .

خطوات اخرى فيجد نفسه امام اكواخ الصفيح المتناثرة في منطقة محاصرة باكوام قمامة ورمال خشنة . وعلى ضوء القمر لمعت بعض قطع الصفيح التي لم تصدأ وتسود بفعل الزمن .. ركل باب بيته بقدمه فانفتح . الغلمان ينامون في المدخل على الجانبين . تجاوز المدخل وصعد درجتين ليصل الى ثلاث حجرات ليس بينها باب او ساتر .. دخل حجرة زوجته الثالثة ، الهاربة من جوع احد اقاليم الجنوب البعيدة ، خلع حذاءه الى جانب رأسها وباصبع قدمه الكبير داعب صرتها من فوق الملابس ، تأوهت وفركت عينيها وجلست في مكانها ، بدوره جلس الى جانبها .. مد يده بلا مقدمات لهدف معين ، وباصابع لا

تعرف التودد او الرحمة بدأ يولجها ، واحدا ثم اثنين . ويبدو انها تعودت فظاظة اللعبة . ذلك انها استسلمت لرغباته واذعنت لحركاته .. وفي كل حجرة من الحجرتين الاخريين تنام زوجة سابقة . ليس ثمة باب او ستار يقي الاذن ما تسمعه من فيهقات . أهي الم ؟ ام طلب لمزيد ؟.. كل من المرأتين الوحيدتين تحدق في الظلام بينما يرتفع صوت المرأة الهاربة من جوع احد الاقاليم البعيدة . صوت متفير ،منطلق تارة ومكتوم تارة . مستفيث مرة ومستسلم مرة اخرى .. وبعد صمت يشي بان كل شيء قد انتهى يتردد في الهواء الآسن . مرة اخرى . ذلك الصوت الذي ينخلع له قلب كل من المرأتين الوحيدتين .

— ٣ —

انتهت ساعات الليل .

في الصباح تبدأ حركة نشاط متوتره ، فالرجل يطلل البيت باوامر صارمة ، لا يتكلم ، وبرغم عينيه الحانيتين . المغلفتين بفلالة دموع رقيقة فان جفونه المفضنة وشفتيه الحادتين الحازمتين وخدوده الغائره المجعدة تكشف قسوة جربها الجميع . بعد الافطار نزل درجتين ليصل الى المدخل الخالي . فقد عود اولاده ان ينطلقوا خارج البيت قبل أن ينحر ظلام الليل ، ويعود الجميع بعد ان يبدأ الظلام .لذا فانه لم يكن يراهم الا جثثا منطرحة ومستسلمة عند مدخل البيت .. جذب خيطا مدلى من الباب الصفيح واغمض عينيه تجنبا لنور الشمس . الفى نظرة على اكواخ الصفيح المتناثرة ، بدأت تتزايد بشكل ملحوظ .. ترك الكوخ الاول والثاني . عند الكوخ الثالث اندفع ناحيته جسم متهالك . انحنى الجسم المتهالك ليغرف ظهر كف الرجل بالقبلات . رفع له عينين مريضتين ، جفونهما حمراء ومتورمة .. نظر له الرجل بعينين بدتا حانيتين ، سحب يده وواصل طريقه .. سار الجسم المتهالك وراءه .. صعد خطوات الى حيث مجمع القرود . الى جانب القرود وقفت مجموعة من الحفاة . استقبلوا الرجل باحترام ينطوي على الخوف ، تبينوا بخبرتهم ان صحة الرجل عليلة ، وانه يدخل سريعا في دائرة الموت .. في صمت بدأ يوزع القرود على الحفاة .. قرود مستسلمة، لا يضع كمامات حول افواهها ، فقد روضها فأجاد ترويضها . قرد الامس المضروب لم يقدم على اي فعل، فقط عندما سحبه الرجل شعر برعب مفاجيء فاندفع بخطوات سريعة وتلفت باستطلاع جنوني ، لكن يبدو انه اطمأن لانه واصل التسير بهدوء.. كل من الحفاة يتسلم قردا يخرج من جيبه عملة يضعها في الكف البنية . كل رجل ينجه بقرده وجهة مختلفة ، لم يبق الا الجسم المتهالك الى جانب الرجل الذي استند الى الوتد . قال ذو الجسم المتهالك بصوت مكدود :

ـ .. انا نادم على ما فعلته ، اعطني قردا بي شيء بطلبه . او فلتوجد لي اي عمل ، انت امل الناس في الاكواخ . واملي انا ايضا . فلتوجد لي عملا وساصير خادمك انا وزوجتي وابنائي ان اردت .

ابتسم الرجل فاطمأن قلب الاخر ، بدأ ينزل الى سفح الجبل . في هذه المرة كان ظله امامه ، وخلفه يسير الجسم المتهالك بجفون حمراء متورمة .

— ٤ —

لم يكن أحد يتخيل ان تمتد اكواخ الصفيح لتشمل كل هذه المنطقة .. ولم يكن احد يتوقع ان يتطور فن المعمار بحيث يتمكن من بناء بيت من دورين واحيانا ثلاثة من الصفيح والحبال والقش والمسامير .

توقع الجميع ان يموت الرجل ، ولكنهم فوجئوا بخبر وفاته ، وقد تضاربت القصص حول نهايته ، قيل أن قردا مسعورا عضه ، وقيل ان احدى زوجاته دست له في شاي الليل قطرات من دم فاسد . وقيل ان بعض الحفاة تربصوا له ، ومن فوق تل منخفض القوا على رأسه حجرا قاسيا .. لكن الثابت انهم عندما أحضروا الصندوق فشلوا في ادخاله من خلال الباب الضيق ، لذا فانهم حملوا جثمانه المغطى بقماش الدمور الى خارج البيت. وقال اكثر من واحد « ان منطقة الصفيح في النهاية اقيمت على اكتافه » .. واذا كان كل من الذين ساروا وراء النعش يتذكر في جانب من قلبه موقفا ظلم فيه، الا ان صورة عيون الرجل الحانية هي التي استحوذت على وجدان الجميع .

القاهرة